مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٥، العدد ٥٩ (صيف ٢٠٠٤)، ص ٩٥

يوسف صايغ..
مفكراً وأستاذاً ومناضلاً
(١٩١٦ – ٢٠٠٤/٥/١٢)*

سمير المقدسي**

لم يشأ القدر أن أكون أحد تلامذة يوسف صايغ في الجامعة الأميركية في بيروت، ولا أن نتزامل في دائرة الاقتصاد إلاّ فترة قصيرة نسبياً، وذلك في أوائل السبعينات، إذ إنه قرر أن يحصل على تقاعد مبكر من الجامعة في سنة ١٩٧٤ لينطلق إلى مهمات أُخرى، وذلك بعد عامين من رجوعي إلى الدائرة.

إن معرفتي بيوسف صايغ – الإنسان والباحث الاقتصادي والقومي الملتزم – توطدت فيما بعد عبر الندوات والمؤتمرات الاقتصادية والعربية التي اشتركنا فيها في أرجاء العالم العربي، إضافة إلى زمالتنا في الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية، ولفترة معينة في المنتدى الاقتصادي للدول العربية وإيران وتركيا.

لن أتحدث عن يوسف صايغ الإنسان والقومي العربي الملتزم، مع تقديري العميق لصفاته الإنسانية الكبيرة ولالتزامه القومي ولنضاله الفلسطيني، وإنما سأتكلم، ولو بإيجاز كلي ضمن المهلة المحددة لي، عن يوسف صايغ الباحث الاقتصادي.

ثلاث ميزات تطبع كتاباته وأبحاثه: أولاً، اهتمامه الرئيسي بقضايا التنمية العربية، وتفرعاً منها بقضايا الاقتصاد الفلسطيني المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع العربي – الإسرائيلي والقضية الفلسطينية؛ ثانياً، تركيزه على جوانب التنمية المتعددة من اقتصادية وسياسية واجتماعية والترابط فيما بينها. فالجانب الاقتصادي ليس إلاّ أحد جوانب التنمية المتعددة التي لا بد من أن ندرسها في سياق واحد إن أردنا أن نفهم معنى التنمية وشروط نجاحها؛ ثالثاً، إيلاؤه العنصر القومي/السياسي اهتماماً كبيراً في المعادلة التنموية العربية.

واللافت أن هذه الميزات الثلاث لازمت، بصورة عامة، كتابات يوسف صايغ على

(*) كلمات ألقيت في حفل تأبين الدكتور يوسف صايغ الذي أقيم في نادي متخرجي الجامعة الأميركية في بيروت بتاريخ ١٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٤.

(**) أستاذ الاقتصاد ومدير معهد الاقتصاد المالي في الجامعة الأميركية في بيروت.

مدى الأعوام الطويلة التي كتب فيها وبحث وناقش الكثير من قضـــايا التنمية العربية الرئيسـية. وهي أعوام عرفت تحولات سـياسـية واقتصـادية جوهرية في العالم العربي منذ عهد الاستقلال، والصراع ضد الاستعمار غير المباشر، ونشوء المقاومة الفلسطينية، واتســاع دور الدولة في عملية التنمية، إلى يومنا المعاصـر الذي يتسـم بحركة العولمة والدعوات إلى التحرر، والانفتاح الاقتصادي، واندماج الاقتصاد العالمي، وإعادة النظر في دور الدولـة في الاقتصـــاد الوطني. ومع ذلك بقي هنـاك أمران ثـابتـان: التجزئـة العربية من جهة، والصــراع العربي – الإسـرائيلي والنضــال الفلسـطيني لاسـتعادة الحقوق الفلســطينية من جهة أُخرى، وإن تغيرت معالم هذا النضـــال. وقد بقيت هموم التجزئة العربية والصـراع العربي – الإسـرائيلي تلازم كتابات يوسـف صـايغ على مر السنين.

في كتـابـه "الخبز مع الكرامـة: المحتوى الاقتصـــادي الاجتمـاعي للمفهوم القومي العربي"، الصـادر سـنة ١٩٦١، أي منذ ثلاثة وأربعين عاماً، يقول يوسـف صـايغ، فيما يقوله، "إن جذور التخلف تمتد إلى ما هو أبعد من الاقتصـــاد، ولهذا فبالضـــرورة تمتد أصــول العلاج الفعال إلى ما هو أبعد من الاقتصـــاد... وإن الفئة المؤهلة للقيادة [لا بد من] أن تكون مســوقة في حملتها للإصـــلاح الاجتمـاعي والاقتصـــادي بعقـائديـة (أيديولوجية) سـياسـية واجتماعية هي مزيج من القوة والرفاه – الكرامة والخبز – لا الربح المادي الفردي." ومن هنا كان اهتمامه بمســألة توزيع الدخل بين المواطنين، وبعبـارة أعم بـالعدالـة الاجتمـاعيـة وقدرة الاقتصـــاد على التوفيق بينهـا وبين النمو الاقتصـادي. ويشـدد على أن العدالة الاجتماعية لا يمكن تحقيقها، في السـياق الطويل، من دون التنميـة، كمـا أن لا قيمـة للتنميـة إن لم تؤد إلى مزيـد من رفـاه الطبقـات المحرومة.

ولم يفت يوسف صايغ، في كتابه هذا، أن يشدد على تأثير الاستعمار وإسرائيل في مســيرة التنمية العربية، وخصــوصــاً لجهة الإمعان في تفرقة العالم العربي مع كل مضامينها في إضعاف التنمية العربية الشاملة. وقد شكل الاستقلال والوحدة والتحرر الاقتصادي الاجتماعي، في نظر يوسف صايغ، مجسماً ثلاثي الأبعاد للأهداف القومية الكبرى. وإذا كان يرى في ذلك الحين أن للدولة دوراً كبيراً في التنمية (وقد أشار في هذا الصدد إلى الاشتراكية الصالحة للمجتمع العربي)، فإنه لم يدعُ إلى تغييب دور القطاع الخاص مع إخضاعه لضوابط المصلحة العامة.

وبعد أكثر من ثلاثين عاماً يعود يوسف صـايغ فيشدد في كتابه "التنمية العربية: من قصــور الماضــي إلى هاجس المســتقبل"، الصــادر عن منتدى الفكر العربي ســنة

١٩٩٤، على أهمية نوعية التنمية العربية المتجسدة في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، إلى جانب مجالي التقانة والاقتصاد، وعلى أنها عانت جرّاء غياب مؤسسات وأعراف دستورية تحفظ التوازن السياسي المطلوب، أو تعيده إذا ما اختل، وتمارس المساءلة والمحاسبة بجد ورصانة. كما يتناول مسألة تبعية الاقتصاد العربي لاقتصادات الدول الكبرى المتقدمة، ويعتبر أن عجز التنمية البشرية العربية هو من الأسباب الدافعة إلى هذه التبعية، وأن أي محاولة جادة للتخفيف من درجة التبعية ومن ثم إرغامها على الانحسار لا يمكن أن تتكلل بالنجاح من دون التحول إلى الاعتماد على النفس (فلسفةً وموقفاً). إضافة إلى ذلك، يرى يوسف صايغ في كتابه أنه مع وجود نماذج تنموية متعددة في وقتنا الحاضر فإن "حاجة الوطن العربي هي لنسق قومي يأخذ من الرأسمالية الليبرالية دوراً اقتصادياً كبيراً للقطاع الخاص... ويولي للقطاع العام بدور اقتصادي حيث تدعو حاجة المجتمع ومصالح فئاته الضعيفة والفقيرة." كما يشدد على الديمقراطية والحرية وسيادة حكم القانون بالتساوي كصفة ملازمة للتنمية.

إذاً، فقد اتسمت كتابات يوسف صايغ باستمرارية التركيز على الأوجه المتعددة لعملية التنمية، من اقتصادية وسياسية واجتماعية، وترابطها بعضها مع بعض. كما شددت على أهمية الاستعداد القومي للنهوض (وضمنه مقاومة الهيمنة الخارجية وتحقيق طموحات الشعب الفلسطيني في التحرر)، مع إيلاء الدولة دوراً مهماً في التنمية الاقتصادية، أكان ذلك لجهة فرض الضوابط على شطط القطاع الخاص، أم تحقيقاً للعدالة الاجتماعية. ولا شك في أنه عندما نقارن بين كتابات التنمية في أوائل الستينات وبين تلك في أواسط التسعينات، تظهر تباينات في تحديد دور كل من القطاع الخاص والقطاع العام في هذا المجال، لكن تبقى الركائز الأساسية للتنمية – التقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية والديمقراطية والحرية والمساواة – هي محاور الاهتمام التنموي الذي أصبح يعرف، في الأدبيات الحديثة، بالتنمية المستدامة، مع العلم بأن السياسات الأجدى لبلوغ هذه الأهداف قد تشكل نقاط تباين فيما بين الباحثين وصانعي القرار السياسي، وخصوصاً بين الدول الكبرى المتقدمة اقتصادياً وبين كثير من الدول النامية. ومن هذا المنطلق قد نجد اختلافاً في وجهات النظر فيما يخص سرعة التحرر الاقتصادي، بما في ذلك التوجه نحو الخصخصة ودور المؤسسات في انتظام السوق بما يخدم المصلحة العامة.

لقد تطورت النظريات الاقتصادية وأصبحت تطبيقاتها أكثر اعتماداً على الاقتصاد القياسي. ومع أن المنحى الذي اتخذه علم الاقتصاد تمثل، إلى حد بعيد، في

نماذج اقتصادية/تقنية صرفة، إلاّ إننا نرى عودة إلى ما يسمى الاقتصاد السياسي. وفي مجال التنمية فإن جوانبها المتعددة (من اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية) وترابطها بعضها مع بعض قد أصبحت مجدداً محور تركيز مكثف من جانب باحثي التنمية. وهكذا نرى الآن، على سبيل المثال، أبحاثاً مستفيضة في شأن الديمقراطية، والتنمية، ودور المؤسسات والتعليم في التنمية الوطنية، ودور الدولة في انتظام السوق، والعلاقة بين المؤسسات السياسية والتنمية، وطبعاً مع محاولات القياس الكمي للعلاقة بين التنمية وعواملها المتنوعة.

بكلمة: إن قضايا التنمية الرئيسية التي عالجها يوسف صايغ – التقدم الاقتصادي، والعدالة الاجتماعية، والتنمية البشرية، والديمقراطية، والحرية – تبقى محاور أساسية قائمة في الأدب التنموي وتطبيقاته في مختلف مناطق العالم، ما دامت تطلعات الشعوب والقيادات السياسية التي تمثلها ديمقراطياً إلى بناء مجتمعات أفضل قائمة.

ولعل إحدى العبر المهمة لكتابات يوسف صايغ للأجيال الصاعدة من الاقتصاديين العرب، حاملي الشهادات العليا، هي أن يظلوا أوفياء للقيم المجتمعية وللمساهمة في بناء أوطانهم، لا أن يصبحوا أسرى العمل التقني الصرف فيشكل غطاء، أو دافعاً إلى عدم الاهتمام بقضايا العدالة والديمقراطية والحرية. فالتقدم المجتمعي يعوزه الفكر الاجتماعي والعلمي بقدر ما تعوزه التطبيقات التقنية؛ إذ كلما توسعت آفاق الفكر العربي توطدت أسس التقدم العربي المرتقب. هذه هي المعادلة الأساسية لأي نهضة تنموية.■

أنيس صايغ*

فجأة وفي أقل من تسعة أشهر، انفرط عقد الريادة الثقافية الفلسطينية، وتناثرت حبّاته واحدة تلو الأُخرى: من إحسان عباس في عمّان إلى إدوارد سعيد في نيويورك، ومن فدوى طوقان في نابلس إلى أحمد صدقي الدجاني في القاهرة. ثم لحق بهم، منذ خمسة أسابيع، كبير آخر: يوسف عبد الله صايغ. وقد جرى التقليد في لقائنا الثقافي الفلسطيني أن نشيّع كل راحل بجلسة وفاء نقرأ فيها العبر من حياته، ونسترشد بسيرته.

وإن حاولت هذا المساء أن أتجاهل وشائج القربى الوثيقة مع الفقيد أظل أسير العلاقة الحميمة جداً بين الأخ وأخيه، وخصوصاً حين يكون الأول أخاً أكبر والثاني أخاً أصغر، والأخ الأكبر في تراثنا الأُسري العربي أب أصغر، شريك للوالد في تحمل المسؤوليات وبذل التضحيات، وخصوصاً أيضاً حين يكون الأب قسيساً إنجيلياً عاجزاً عن تحقيق طموحاته وطموحات أبنائه السبعة في التحصيل العلمي العالي. يختصر هذه العلاقة بين يوسف وبيني صورتان فوتوغرافيتان أحتفظ بهما، وعُمر كل منهما أكثر من سبعين عاماً. كان هو تجاوز السادسة عشرة، وكنت في أشهر الطفولة الأولى: يرفعني في الصورة الأولى منهما على كتفيه إلى فوق، ويحتضنني في الثانية بين ذراعيه.

هذه، في الواقع، سيرة يوسف صايغ مع الحياة والآخرين: يحتضن قضايا مجتمعه وهمومه في قلبه ووجدانه، ويحاول أن يرفع شأن شعبه إلى أعلى مرتبة ممكنة.

حياة يوسف صايغ سلسلة من النشاطات الجادة في خدمة المجتمع العربي عامة، والفلسطيني خاصة. ستون عاماً تقريباً من العمل الدؤوب، إمّا في إقامة المؤسسات وتحقيق المشاريع، الوطنية والقومية، الثقافية أو الاقتصادية أو التنموية أو الاجتماعية، وإمّا في وضع الخطط والمخططات والبرامج ورسم الاستراتيجيات للوصول بالأمة إلى غد أفضل. وكأن يوسف كان يأمل دوماً بتحقيق مدينة الفارابي الفاضلة على الأرض العربية. وليست حياته، في حقيقة الأمر، إلاّ مجموعة هذه المساعي النظرية والتطبيقية، في هذا المجال أو ذاك، من دون الوقوف أمام المعوقات الدخيلة والشكوك والإحباطات، ومن دون مراعاة تقاعس الآخرين أو مضايقاتهم.

لمس يوسف، أواسط الأربعينات من القرن الماضي، ما عاناه النضال المحلي الفلسطيني من ضعف في الإعلام وشح في المال. فزوّد المكاتب والوفود السياسية

(*) مؤرخ، ومدير مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية سابقاً.

الفلسطينية الدراسات العلمية، من جهة، وأنشأ بيت المال العربي، أول صندوق لدعم النضال يعتمد الأسلوب الحديث والشفافية في تمويل الثورة. وكرر تلك التجربة بعد عشرين عاماً، وقد ضاعت فلسطين كلها وأفلست قياداتها معنوياً، وإن اتخمت مالياً، فأشرف على الصندوق القومي الفلسطيني وأدخل فيه عنصر الحداثة والتنظيم الرفيع. وأسس، من جهة أُخرى، مركز التخطيط ليكون العقل المفكر للثورة الفلسطينية إلى جانب مركز الأبحاث، العقل المنقّب. وبعد أعوام من العمل الشاق في إعداد أول وأوسع دراسة استراتيجية شاملة لتحرير فلسطين بمساهمة العشرات من النخب الثقافية الفلسطينية والعربية، انتهت تلك الجهود إلى سلال المهملات، لا لأن القيادة السياسية لم تقتنع بها، وإنما لأنها افتقدت الرغبة والنية في الاطلاع عليها – وقد رأى يوسف بعينيه، وفق ما كان يروي بألم وغصة، كيف تحولت تلك الأوراق السرية والبالغة الخطورة إلى أكياس يستعملها بائعو الفستق السوداني في أسواق عمّان.

مرة أُخرى لم ييأس يوسف صايغ، وكأنه أيوب النضال الفلسطيني المؤمن بقضيته والمتفائل بشعبه باستمرار، على الرغم من انحرافات القيادات وهبوط مستواها. فبعد مأساة مركز التخطيط بعشرين عاماً، توجه إلى تونس ليشرف على إعداد أرصن دراسة شاملة تخطِّط للمجتمع الفلسطيني بعد التحرير، اقتصادياً وتنموياً وإدارياً. وصرف عدة أعوام يعمل ليقدم في النهاية أشمل وأرقى خطة مفصلة وعملية لفلسطين الغد. وبينما نال هذا البرنامج إعجاب خبراء الدول المانحة والهيئات المختصة في الأمم المتحدة والبنك الدولي، استعيض عن الخطة بإجراءات عشوائية أدت إلى حال الفساد المالي والاهتراء الإداري والظلم الاجتماعي السائد حالياً ومنذ عشرة أعوام. كان يوسف يؤمن بتحرير فلسطين كاملة من نهرها إلى بحرها، من الناقورة إلى رفح، شاملة مسقط الرأس في البصة وملعب الصبا في طبرية. لكنه، في الوقت نفسه، آمن بأنه حتى لو اختُزلت فلسطين في بضع مئات من الكيلومترات المربعة فإنها يجب أن تكون قدوة في الطهارة الثورية. لكن حلمه خاب.

كذلك كان مصير حلمه العربي. لقد ورث يوسف وأشقاؤه عن والديهم قلوباً تضخ دماء عربية في شرايين قطرية: فلسطينية وسورية ولبنانية. لذلك نراه يصرف وقتاً طويلاً في وضع استراتيجيات لتطوير اقتصاد وتنمية عربيين موحدين. وكان من أبرز أعماله، في هذا المجال، الدراسة القيمة التي أشرف عليها لجامعة الدول العربية عن الكيان العربي الموحد اقتصادياً وتنموياً واجتماعياً. ومرة أُخرى، يضع صانع القرار العربي الدراسة على الرف، وتذهب الجهود سدى.

لم يكن يوسف صايغ حالماً مثالياً، وإنما كان صاحب مشروع واقعي. استنفد

طاقاته العلمية والصحية كلها لتهيئة مجتمع أفضل للفلسطينيين وللعرب. ويوماً ما سيجد الجيل الطالع المتحفز لتطوير بلده مادة خصبة من الأبحاث والمشاريع التي تركها له هذا الرائد الكبير.

آمن يوسف بأهمية تدريس الأجيال الطالعة، فصرف أكثر من ربع قرن يدرّس في عدد من الجامعات الكبرى في لبنان وبريطانيا والولايات المتحدة، وألّف عشرات الكتب والأبحاث، وشارك في مئات الندوات العلمية وحلقات البحث في أكثر من عشرين دولة على امتداد نصف قرن. وربما أذيع سراً يجهله كثيرون عن يوسف صايغ، للدلالة على التزاماته النضالية بشقيها الجهادي والفكري: كان يوسف من النخبة الثقافية الفلسطينية، وربما العربية أيضاً، النادرة التي لم تكتفِ بتأييد الكفاح المسلح والدعوة إليه من بعيد، بل حمل بنفسه السلاح وقاد مجموعة من المقاتلين المثقفين في مدينة القدس، في أيار/مايو ١٩٤٨، حتى نفدت الذخيرة ووقع أسيراً لدى القوات الصهيونية، ولم يُفرج عنه إلاّ بعد عام تقريباً.

وإني إذ أقف محيّياً ذكرى يوسف صايغ لا أستطيع إلاّ أن أحيّي أيضاً تلك السيدة التي رافقت يوسف في مسيرته أكثر من خمسين عاماً. تعارفا في مطلع خمسينات القرن الماضي، وتحابا، وتزوجا، وترافقا في البحث عن عالم عربي أفضل، وعن دعم أفعل للنضال الفلسطيني. إنها روز ماري بوكسر، بريطانية استعربت. ويصح أن نقول، بعد أن أعطت الفلسطينيين، وخصوصاً أهل المخيمات، أنضج الدراسات الاجتماعية، إنها فلسطينية من أبوين بريطانيين.

إن لقاءنا الثقافي الفلسطيني إذ يودّع عضواً رائداً ومرموقاً طالما أغناه بمداخلاته ومناقشاته طوال الأعوام العشرة الأخيرة، يشارك جموع المثقفين العرب في الاعتزاز بهذه القدوة والاستنارة بتجربتها وعطاءاتها. ■

غسان تويني*

أبدأ كلمتي بالتوجه بتحية محبة وإكبار إلى القسيس عبد الله صايغ – حيث هو، ويرانا – الذي أنجب وربّى، هو وزوجته الفاضلة، هذه العائلة من العباقرة: يوسف، فايز، توفيق، ولا أنسى – كيف أنسى؟ – أنيس، الشهادة الحية المثابرة للعذاب الصابر.

ثم كيف أنسى ذلك البيت على ضفاف طبرية حيث كبروا وشبّوا إلى أن جاء زمن المأساة؟

كيف أنسى، وكانت لي نعمة الاستضافة في ذلك البيت، ذات أسبوع عطلة سنة ١٩٤٤. كنا، فايز وأنا، نستمع، في ظلال شجر الصفصاف، إلى نظريات يوسف في الاقتصاد والإنماء المستدام. نستمع، ولا أظننا كنا نجد في تركيبة النظام الفلسفي الذي ندرس ولو مربعة، نافذة متواضعة، نرصف فيها الأرقام التي يذهلنا تسلسلها...

فايز كان أقدر منا، وطبعاً أقدر من الشاعر المبتدئ توفيق، على الاستيعاب. هو كان إذ ذاك يعدّ أطروحة ماجستير، بينما كنت مبتدئاً يسحرني ما يدلقه علينا معلمنا الدكتور شارل مالك من نظريات أفلاطونية ولا رقم واحد ولا حساب.

أظنني أتذكر أن فايز كان يبتسم أحياناً – آه هذه الابتسامة التي تظنّها هازئة، أو هكذا تتصنّع، ربما إرضاء لسائر المستمعين إلى الأخ الأكبر، الفارع القامة، وكأنه يلقي شروحاته من علو. وأنا حسبي أني سمعته يقول – فتتصالح عقولنا – إن غاية التنمية، بل الاقتصاد هي الإنسان. إذاً، لا حقيقة مطلقة ذاتية في الاقتصاد من أجل الاقتصاد.

كنت أصفق في عبّي لأني وجدت كلمة إغريقية أزرعها في ذاك البيان الكرشوني: "تيلوس"، أقول، أي "الغاية"... إذاً للاقتصاد "تيليولوجية" تنتهي إلى الإنسان، وتطمئن نفوس الفلاسفة، أو المدّعين الفلسفة بيننا.

ذات يوم، لعلنا كنا سئمنا الشروحات والمناقشات – آخ كم كنا نهوى المناقشات، اليوم كنا سمّيناها الحوار.

ذات يوم، بُعيد الظهر – كيف أنسى – عرض علينا يوسف أن يأخذنا بسيارته العتيقة – الجديدة ("ستوديبايكر" مكشوفة) في رحلة إلى القدس، نزورها ثم نتفرج على "الحي اليهودي" (كذا كانت التسمية) وفي باطنيته أن المقارنة ربما تجدينا نفعاً فنفهم المعنى الكياني للاقتصاد، ونقارن عماراً بعمار، فيستفزنا ذلك إلى مزيد من النضال العاقل المنتج. أظن أن يوسف كان بدأ آنذاك يتعاون مع ما كان أو صار يسمّى الهيئة

(*) وزير ودبلوماسي سابقاً، ورئيس تحرير صحيفة "النهار" البيروتية.

العربية العليا منذ أيام الحاج أمين الحسيني. وقد تولى فيها بعد حين أمانة بيت المال الفارغ الخاوي.

نحن، فايز وأنا، كنا نحلم بنهضة تنطلق من ترقية الإنسان الفرد بدءاً بعقله، فتربيته "الشخصانية" النهضوية الاجتماعية، كي لا يأخذ مكانه في المجتمع المتكامل أعزل العقل.

وتمر الأيام متراكضة، تفرّقنا سفراتنا، كل إلى جامعة في خارج، ثم نعود نلتقي والبحيرة المقدسة ومدينة الله أورشليم أطياف ذكريات تحرق قلوبنا، وتزيد في تصميمنا على خوض المعركة ضد الصهيونية على مستواها الحضاري، وبأسلحة علمية تضاهي ما استصنعت به إسرائيل انتصاراتها.

بعد ذلك، لم أعد إلى طبرية ولا مرة، لكنني ظللت أتفيأ أطياف أشجارها. كنت قد عدت إلى القدس مرة واحدة فيما بعد، في أيار/مايو ١٩٤٨. ويا ليتني لم أعد ولم أشاهد، كمراسل عسكري من "النهار"، المعركة المضحكة – المبكية التي عدنا منها، وثمة من يقول إنها كانت قمة الخيبة، وآخرون يبرّئون الذات بالقول إنها "نكبة!"

سنة ١٩٥١، عندما كانت تتألف في بيروت الجبهة الاشتراكية الوطنية من النواب المعارضين الغاضبين حول برنامج لبناء دولة عصرية في لبنان لا تعصف بها رياح النكبات، دار بحثنا حول الاقتصاد، فاقترحت – وكأنني أعود بالذاكرة إلى أحاديث طبرية – أن نستعين بالدكتور يوسف صايغ، ربما لنحتمي بعلمه من الحلم بالمستحيل. وهكذا كان؛ فوضع لنا خطوط برنامجنا الاقتصادي، متى نتسلّم الحكم، مُوفقاً بين عقائد متنافرة حيناً ومتكاملة أحياناً، ثم جعل الاقتراح المركزي فيه إنشاء مجلس تخطيط وتنمية يتمتع – وهذا وجه التجديد الثوري – بصلاحيات اشتراعية، فلا يظل الإنماء تحت رحمة هواجس مجلس النواب، ولا يذوب على نار صراعات "ممثلي الشعب" المصلحية الانتخابية. وأذكر أنه قام بيننا من اقترح أن يترأس المجلس الاقتصادي وزير يسمى وزير التصميم، كي لا تقوم ثنائية بين مجلس الوزراء والمجلس الاقتصادي الإنمائي. وظلت المسألة مبهمة عالقة خشية أن تأتي الأهواء السياسية بوزير لا يفقه شيئاً من الخطط المطلوب وضعها واشتراعها، فيذهب الإنماء أدراج الرياح.

وتمر الأيام، ويمضي يوسف يعمل على صوغ مواد مشروع قانون كنا ننوي اقتراحه على مجلس النواب، من منبر المعارضة، مكتملاً متوازناً، وموقعاً ممن يتيسر جمعه من الحلفاء.

إلاّ إن منبر المعارضة سرعان ما صار منبر السلطة بعد ثورة ١٩٥٢ البيضاء.

فحملتُ بعد حين إلى قصر بيت الدين الأوراق التي حبّرها يوسف (وأظنها لا تزال في محفوظاتي) لأعرضها مجدداً على رئيس الجمهورية المنتخب حديثاً، كميل شمعون، وفي ظني أنه سيكون لنا بين وزراء الحكومة الأولى، ولو حليف واحد ذو وزن هو الدكتور جورج حكيم، رفيقنا في الجامعة الأميركية حيث درّس الاقتصاد. وكان يوسف يأمل بأن يجد لديه أكثر من سبب، بين المجهول والمعروف والمُجهّل، لعدم التردد.

لكن جورج كان وزير الخارجية ليس إلاّ.

واستيقظت في الرئيس شمعون سليقة البرلمانية، فصارحني ذات مساء، في اجتماع وحدنا في القصر، بأن ما كان يصلح مطلباً معارضاً قد لا يصلح مشروع قانون يقره النواب، متخلّين بموجبه عن بعض أهم "صلاحياتهم"... ومنها شق الطرقات، مثلاً، ومشاريع الري والطاقة. وكلها كنا، مع يوسف صايغ، قد حلمنا بإخضاعها لتخطيط المجلس المطلوب استحداثه، كي لا تضيع ميزانياتها هدراً في البازارات السياسية المعهودة الفساد. وكان أن أصدرت الحكومة بعد حين مرسوماً اشتراعياً ينشئ المجلس، إنما بصلاحيات مبتورة تقتصر على الدراسة واقتراح المخططات، ويحتفظ مجلس الوزراء ومجلس النواب بصلاحيات التقرير والتشريع.

ومر عهد الرئيس شمعون بسرعة ولا أذكر، ولم يعد يهم يوسف صايغ أن يعرف إذا كان المجلس أنشئ فعلاً، أو ظل المرسوم حبراً على ورق، إلى أن جاءت "الشهابية" وتسلحت بوعي اقتصادي اجتماعي، تراجيدي أكثر منه علمي، فأعادت إنشاء مجلس تصميم ما لعله صمّم، لكن أحداً لا يذكر أية تصميمات من شغله غيّرت مسار التنمية الأعرج الذي سلكه لبنان، ولا "غائية" يخدمها تلتزم مصير الإنسان...

على أن ما كان يعزي النفوس هو وفرة الأدبيات الاقتصادية التي كان يوسف صايغ يحذّر منها، في كتاباته ومؤلفاته الصارمة العلمية التي تكاثرت في تلك الحقبة، متمركزة حول الحلم الفلسطيني وكيف نُكسبه الواقعية التي يحتاج من "الخبز والكرامة"... ثم طلائع الرشد الاقتصادي عند بعض عرب النفط الذين لم تغرق الثروة المفاجئة ولو بعض مثاليتهم القومية البنّاءة.

كان ذلك زمن يوسف صايغ العربي.

رفاقه وتلامذته القدامى يقرأونه ويتفهمون تلازم طموحه الدائم حتى المستحيل، وهذا الهدوء الباسم، يصوّر على وجهه وشفتيه عمق ما في نفسه من عذاب العارف بعمقٍ، في دنيا الارتجال، كي لا نقول الجهالة.

ولو كان يوسف لا يزال بيننا الآن، كم كان يجد نفسه مضطراً إلى القهقهة بدل الابتسام... وكم كان يتألم لأن ولاءه الذي لا يساوم يمنعه من الشماتة بأنظمة وأشباه

أنظمة جعلت – من حيث لا تدري ربما – تقارير الأمم المتحدة عن الإنماء المتكامل تصنّفنا في أتعس المراتب الدنيا... وكأنه لم يقم بيننا يوسف صايغ وأمثاله ولو قلّة، يدعوننا في الدراسة بعد الدراسة، والكتاب بعد الكتاب، إلى سلوك دروب النهوض التي يظن العالم المعولم أننا أعجز من أن ندركها ونخطط لها بأنفسنا!

ألم يكن يوسف صايغ يذهب إلى حد استفزاز الدول؟ إقرأوا كتاباته في المرحلة الأخيرة وبعض ما قبلها، تدركون كيف كان يتصنّع أحياناً جهل الواقع، وهو يقترح ما كان يمكن معه، لو اتبعوه، إنقاذ الأمة والشعب من التخلف الذي يهيئ لاستعمار من لم يعمّر نفسه ذاتياً بالمعرفة والحرية.

وبعد. وقد أطلت الحديث. لا أحتاج إلى كثير شجاعة لأعترف بأنه ليس من حقي أن أختم كلامي حتى ولا بالقليل مما أعرفه من نظريات الدكتور صايغ، وسواي ممن هم أحق مني سيتناولون ذلك.

حسبي هذه الصورة الكيانية – أي الغير العلمية ربما – التي أظنها تروي حسرة الخيار، في حالة مثل حالة من صار معلّم جيل، كيوسف صايغ... الخيار بين أن يستمر المعلم يبحث، حتى تخوم التنظير، فيكتب، ثم يبحث ثم يكتب ويكتب، وهو يعرف أن من يكتب لهم وعنهم وإليهم هم، أو هم صاروا يعجزون عن مسايرة الخلق العلمي والفكري، ولو بالفهم النظري، فكيف بالإقبال على التنفيذ الرسولي؟... الاختيار – أقول إذاً – بين أن يستمر يقول الحقيقة ويرسم طريق التنمية، وبين أن ييأس ويزهد ويكتب فقط لنفسه وللتاريخ.

فيا يوسف صايغ، المجتمعون هنا ما كانت تجمعهم ذكراك لو يئستَ مثل سواك. ■

شفيق الحوت*

عندما اطلعت على قائمة المتحدثين وعرفت موقعي تأكدت أنه لم يبق لي ما أقوله عن يوسف صايغ، لكنني مع ذلك سأحاول بكلمات وجدانية قليلة.

نشأ يوسف في أسرة مميزة فعلاً، وتمييزها غير تقليدي؛ فالأسر المميزة عادة ما تكون إمّا إقطاعية وإمّا دينية وإمّا بورجوازية، لكن تميُّز أسرة صايغ هو من نوع فريد.

من ميزات هذه الأسـرة، أولاً، أنها أسـرة ورع وتقوى وإيمان. ولا عجب، إذ إنها تنحدر من هذا القاطع من صحراء العرب الممتد ما بين ساحل طبرية وأطراف الجزيرة العربية، حيث كان أجدادهم من العرب النصارى، ولعلهم أحفاد أولئك الذين أشير إليهم في القرآن الكريم بأنهم الأكثر مودة، "ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً." وعبد الله صايغ كان من القسيسين والرهبان.

وتتميز هذه الأسـرة، ثانياً، بأنها كانت أسـرة علم وإبداع ومعرفة. فبين بكرها الراحل الفقيد يوسـف، الاقتصـادي، وبين آخر العنقود فيها أنيس، المؤرخ، نجد فيها الشاعر والمفكر والدبلوماسي والطبيب، وكل منهم مبدع ومتفوق في ميدانه.

ثالث ميزات هذه الأسـرة، التي جمعت الورع والإيمان والتقوى مع العلم والمعرفة والإبداع، أنها تميزت بالالتزام، فكانوا جميعاً يتصـرفون وكأنهم يحملون مهمة رسولية هي قضية فلسطين، ويستحيل على أي فلسطيني في هذه الأيام أن يبحث أو أن يكتب عن قضية فلسطين من دون أن يمر بيوسف صايغ وأنيس صايغ وفايز صايغ. وإن لم يجد ضالته مع هؤلاء الثلاثة فعليه بِروز ماري، وبيزيد صايغ كذلك.

إذا تذكرنا أن يوسف من مواليد سنة ١٩١٦، على ما أذكر، وتذكرنا أن الحاج أمين وربعه وجيله يمثلون الرعيل الأول من القيادة الفلسطينية، فبعملية حسابية بسيطة نستنتج أن يوسف وأبناء جيله يمثلون ما يمكن أن نسميه الرعيل الثاني من القيادة الفلسطينية، وهو آخر جيل خرج من فلسطين أو عاش أو تجاوز نكبة فلسطين من الطليعة الواعية المدركة، والتي كانت مؤهلة لأن تقود الشعب الفلسطيني في نضاله لتحرير أرضه واسترداد حقوقه الوطنية.

عندما نذكر يوسف صايغ، شخصياً، ومعي بعض المخضرمين هنا من أبناء فلسطين، نذكر: برهان الدجاني؛ وليد الخالدي؛ عبد الله الريماوي؛ عبد الله السبع؛ بهجت أبو غربية؛ كمال ناصر؛ رفعت النمر؛ إحسان عباس؛ خالد الفاهوم؛ سامي

(*) مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان سابقاً.

العلمي؛ نمر طوقان؛ وغيرهم وغيرهم من الرجال الفلسطينيين الذين كانوا زملاء ورفاق يوسف صايغ المؤهلين لقيادة شعب فلسطين، ممثلين للرعيل الثاني، أو الموجة الثانية من النضال الفلسطيني.

كان يوسف من القلة من أبناء هذا الجيل الذين استمروا على تماس مع قضيتهم الفلسطينية، وكنت أحياناً أتساءل: ماذا يفعل يوسف صايغ بيننا في منظمة التحرير أو في غيرها من المؤسسات الفلسطينية في الوقت الذي كان في استطاعته أن يكون في السعودية أو الخليج ويعمل لمصلحة النفط وأسواق النفط ورجال النفط، وأن يشيد القصور، وأن يبني الفيلات، وأن يقتني اليخوت؟! لكن يوسف كان مصراً على أن يبقى على تماس مع قضية فلسطين. والسبب، وهذه ميزة أُخرى في أسرة صايغ، أنهم قوميون.

في الختام، وعلى الرغم من صعوبة الادعاء بقدرة أي إنسان على التحدث باسم الشعب الفلسطيني، أستطيع أن أقول إن فلسطين لن تنسى أبناءها، فلسطين لن تنسى يوسف. ■

سليم الحص*

تولّيتُ التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت ابتداء من سنة ١٩٥٥، وكنتُ حائزاً بكالوريوس في العلوم التجارية نلتها قبل ثلاثة أعوام. وتدرّجت في إبان مرحلة التعليم إلى درجة الماسترز، ثم الدكتوراه.

خلال تلك المرحلة التي مارست فيها التدريس وجدتُني وسط نخبة من الأساتذة المتميزين، خطّوا في فكرهم وسلوكهم وأدائهم أنموذجاً صالحاً آنستُ فيه خير قدوة، وكان في مقدمهم يوسف صايغ.

شرعتُ في التدريس تحت جناح أستاذي الكبير الشيخ سعيد حمادة، الذي درستُ على يديه اقتصاد الشرق الأوسط، وزاملتُ الأستاذ اللامع برهان الدجاني، وكان هو الذي رشّحني للتدريس في الجامعة. وكنتُ معجباً بفكر الرجل القومي وتفانيه في خدمة الاقتصاد العربي وإيمانه الوطيد في مستقبل اقتصادي عربي واعد في زمن كان القطاع النفطي العربي يتعاظم شأناً على المستوى العالمي.

عند انضمامي إلى الهيئة التعليمية في دائرة العلوم التجارية كان الدكتور يوسف صايغ أستاذاً في دائرة الاقتصاد. وقد تعرفت إليه بحكم الزمالة، ومن حيث أن طلابي كانوا طلابه في وقت واحد، وفضلاً عن ذلك من خلال متابعتي عن كثب لنشاط الرجل وإنتاجه الوفير، وخصوصاً في ميدان البحث الاقتصادي على الصعيدين اللبناني والعربي. كان الدكتور يوسف لي أنموذجاً صالحاً للمواطن العربي الخلاّق، المؤمن بقضية أمته إيماناً لا يتزعزع.

كانت مرحلة تحرر ويقظة وأحداث جسام. كان المد القومي الناصري في أوجّه، وتولّد منه في لحظة تاريخية خاطفة اتحاد بين مصر وسورية فيما سُمِّي الجمهورية العربية المتحدة، والتي كان لانهيارها المدوي تداعيات خطرة على المسار القومي العام، وكانت حرب ١٩٦٧ التي أوقعت تحولاً جذرياً في مسار القضية العربية، إذ باتت "إزالة آثار العدوان" هدفاً صرف العرب فعلياً عن جوهر قضيتهم المركزية في فلسطين، فطُرحت مبادرات متتالية، بلغت ذروتها بتوقيع الرئيس أنور السادات اتفاق استسلام مع العدو الصهيوني.

كنت أتابع التطورات العربية خلال تلك المرحلة بكل جوارحي، فأجد في يوسف صايغ مَعيناً لا ينضب فكراً وحكمة والتزاماً قومياً صادقاً. كنت أتابع ما يُسطّر يوسف

(*) رئيس الحكومة اللبنانية سابقاً.

صايغ عن تلك المرحلة وأناقشه ما يقول ويكتب.

أتحف الدكتور يوسف صايغ المكتبة العربية بدراسات اقتصادية معمَّقة، غزيرة ووافية، تناولت الأحداث والتطورات في لبنان والوطن العربي. وكانت كتاباته تتميز بقوة الإقناع نظراً إلى ما كان يتحلى به الرجل من موضوعية وتجرد ونهج علمي دقيق وروح مسؤولية عالية، إلى غزارة في العلم والمعرفة، فضلاً عن جرأة متناهية في خدمة الحق والحقيقة عند نقد السياسات الرسمية العربية في الشأن الاقتصادي.

إن أعظم ما يجسد يوسف صايغ في وجداني رعيل من المثقفين العرب كان يحمل قضايا الأمة في ضميره ويعبر عن شجونها خير تعبير بما حباه الله من إخلاص وتفان وشجاعة، وبما يتحلى به من علم ومعرفة وموضوعية ومنطق. إنه رعيل بتنا نفتقد أمثاله في عصر عمّ فيه شيء من الانكفاء عن الشأن القومي، كما نفتقد صوت الشارع الذي كان يدوي انتصاراً لقضايا العرب في المشرق والمغرب.

ذاك الرعيل الرائد أخذ في الضمور فيما بعد، إذ دفعت أنظمة القمع والكبت رجال الفكر والعلم والثقافة من أمثال يوسف صايغ إلى زوايا المجتمع، وبعثرت صفوفهم هجرة الأدمغة إلى خارج الوطن العربي. كم من هؤلاء يعمل اليوم في خدمة دول ومؤسسات في مغرب العالم ومشرقه؟

أمّا الشارع الهادر فقد غاب تحت واقع عاملين: القمع والكبت من جهة، وإغراق المواطن العربي بمشكلاته وهمومه من جهة أُخرى. فقد علّمتنا تجارب المحنة اللبنانية على امتداد خمسة عشر عاماً أن الإنسان إذا واجه مشكلة وقضية غلبت المشكلة في نفسه على القضية. الشارع العربي غارق هذه الأيام في شجون حياتية صرفته عن قضاياه الوطنية. لكن إلى حين. إذ لا بد من أن يستفيق الشعب فيعود ليلتقط زمام مصيره بيده. هذا قدر الشعوب الحية الواعدة. وهذه رسالة يوسف صايغ المفكر الملتزم، ابن هذه الأمة البار.

رحم الله الدكتور يوسف صايغ، وطيّب ثرى رعيله من الرواد العرب الكبار، عسى أن يكون في استحضار ذكراهم ما يبعث الروح في نفس المواطن العربي كي ينهض مجدداً فينتزع حقوقه الوطنية ويصون مصيره القومي بإرادته الحرة. ■

غازي العريضي*

ليس غريباً على بيروت أن تجمع هذا الحشد المميز في مقر جمعية متخرجي الجامعة الأميركية بالتحديد، لتكرم رجلاً أعطى بيروت وجامعتها الأميركية والأندية الثقافية فيها والثقافة عامة والعلم والفكر الكثير الكثير على مدى عقود من الزمن، فكان مناضلاً لبنانياً، فلسطينياً، عربياً، بكل ما للكلمة من معنى.

الدكتور يوسف صايغ عرفناه في بيروت وفي الجبل وفي مواقع لبنانية متعددة مناضلاً مكافحاً يستند إلى العلم والفكر والقواعد العلمية والجدلية العلمية في مواقفه وحواراته وكتاباته، فكان رمزاً مميَّزاً من رموز الدفاع عن القضية الفلسطينية والقضية العربية والإنسان العربي عامة. نفتقده اليوم ونحن نرى الآخرين يحاولون تقرير مصيرنا، وفرض خطط علينا ومشاريع تحت عناوين الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية، فنشعر بالحاجة إلى أمثال يوسف صايغ الذي كان رائداً من رواد الإصلاح والثقافة والعلم في مجالات السياسة والاقتصاد والتربية بصورة عامة.

وفي هذا المجال نرى أننا في ذكراه في أمسّ حاجة إلى الاستفادة مما كتب، وأيضاً إلى دعوة كل المثقفين وكل المفكرين العرب وكل المنتجين العرب في مختلف مجالات اختصاصهم، الثقافة والاقتصاد، الفكر والعلم، إلى مزيد من التوحد، وإلى مزيد من اللقاءات في حوارات مفتوحة، ليساهم كل منهم من موقعه في رسم معالم التغيير التي لا بد منها في هذه المنطقة التي يجب أن تنطلق من مفكريها ومن مبدعيها ومن كتّابها ومن مثقفيها لا مما يُفرَض علينا من الآخرين.

نكرم اليوم باحثاً رائداً من الباحثين العرب الذين ساهموا في إغناء القضية العربية والفكر العربي، وعزاؤنا في غيابه أنه ترك الكثير الذي نستمد منه معرفة وعلماً وقوة وتجربة في الصبر على ما عاشه كفلسطيني في لبنان، وعلى ما عاشه كفلسطيني في الشتات، وعلى ما عاشه أبناء شعبه في فلسطين، ولم يكن يوماً إلاّ قريباً من هذه المعاناة. ■

(*) وزير الثقافة في الحكومة اللبنانية.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf